

## بين يدي الكتاب

بقلم: عبد اللطيف الأرنؤوط

- ١ -

بواكير «شفيق جبري» الثرية، مجموعة مقالات ذاتية وموضوعية نشرها بين العشرينات والثلاثينات من هذا القرن في شتى الصحف والمجلات، واعترف له الناس بمكانته الأدبية ناثراً موهوباً، وكاتب مقالة من الطراز الأول في زمانه، يوم كانت الصحافة أدباً خالصاً، ولما يكن الصحفي قد استقل عن الأديب بعد، وقد جمع «جبري» فيها مستلزمات الأدب والفن الصحفي معاً.

أما فيما يتعلق بفن الصحافة في مقالاته فقد أحسن «جبري» اختيار مادتها، وأدرك بثاقب نظره واهتماماته الاجتماعية حاجات قرائه الفكرية والاجتماعية في تلك الفترة، فلاقت مقالاته اهتماماً وسيرورة بين الناس، وكانوا ينتظرونها بفارغ الصبر، لما كانوا يجدون فيها من عمق فكري، وزاد ثقافي، وبيان ناصح سليم .

أما ما يخص الأدب فيها، فإن شفيق جبري المبدع أجاد في اختيار مقدمات شائقة، ومداخل لطيفة لمقالاته، وأضفى عليها شأن كتاب المقالة في عصره - كمصطفى صادق الرافعي، وأحمد حسن الزيات، وطه حسين - حُلّة ناصعة من البيان العربي المشرق، والأسلوب الأدبي الذي ساد في زمانه.

وكان يجمع بين الترسل والتزين البديعي من توازن وترادف مع ولع باختيار المفردات والتراكيب الواضحة، وإن كان يحرص على بعث الحياة في

كثير من ألفاظ العربية وتعبيرها مما ندر استعماله، وغاب عن الاستخدام في حياتنا في بطون المعجمات.

وفي هذا كله لم يخرج جبري في بواكيره الثرية عما كان سائداً في أساليب كتاب المقالة من معاصريه.

على أن مقالاته تتميز عن أقرانه بما تتضمنه من بعد ثقافي، ومعارف واسعة، واتكاء على العقل بمقدار ما تتبع من الوجدان، واتزان وهدوء في الشخصية، وقدرة على الإقناع تحدت إليه من مطالعته الواسعة في التراث العربي والأدب الفرنسي.

فمن النادر أن تجد له مقالة لا تتضمن شواهد واسعة مقتبسة من مطالعته الغزيرة، وهو يحسن اختيارها، ووضع الشاهد في مكانه الملائم من الفكرة نصاً كان أم واقعة تاريخية، أو اجتماعية حتى يقود قارئه في نهاية المطاف إلى التسليم بوجهة نظره.

ففي مقاله عن عبقرية الوطن يستهله بقول يندد فيه بالمتفجرين الذين يبالبون في إظهار وطنيتهم الزائفة بالكلام دون الفعل، وينتقل بعد ذلك إلى إثبات أن الوطنية الصادقة هي الوطنية الهادئة الساكنة التي تتبع من القلب، ولا أثر فيها لأباطيل البيان، ويقودنا إلى التسليم بأن حب الوطن يلتمس المرء في كل مظهر من مظاهر طبيعته، في ترابه الذي حوى رفات الآباء والأجداد، وفي ذاكرة الأجيال عنهم، وفي ارتباطهم بالأرض، ومعالمها ورسومها، ويستشهد على ذلك بحين امرئ القيس إلى مرابعه بعد أن غادرها إلى قيصر، وبصور التاريخ الزاهية للماضي المجيد، وآثار حضارة السلف الماثلة، ثم يختم مقاله داعياً قومه إلى حب الوطن، فيقول:

«إذا كانت وطنيتنا ينقصها شيء فإنما ينقصها هذا الطراز حتى يُشربَ قلب كل واحد منا حبَّ تربته الكريمة على شتى ألوانها وأشكالها، وفي مختلف أيامها وعصورها».

ويعود «جبري» في كثير من مقالاته إلى ما كان عاجله في مقالات سابقة، فيغني الفكرة التي طرحها ويوسّعها، من ذلك أنه عالج موضوع حب الوطن في أكثر من مقالة لاحقة، فأظهر دور التربية في تنشئة الجيل على الوطنية الصادقة، وندّد بمناهج الانتداب الفرنسي التي كانت تعلم تاريخ فرنسا وجغرافيتها لأبناء وطنه، متجاهلة خطر طمس التاريخ العربي وجغرافية بلدان العرب، وإهمالهما في المناهج المقررة.

- ٢ -

وإذا تساءلنا عن الرابط الذي نظم هذه المقالات المتفرقة تبين لنا بالرجوع إلى مضامينها أن «جبري» كان يهدف من ورائها إلى غاية واحدة وهي نشر الوعي والإصلاح لدى أبناء وطنه، فإذا كتب في اللغة حبّ إلى الناس معجماتها وحثهم على إصدارها معززة بالصور التوضيحية، أو أبدى اعتزازه بصمود اللغة العربية ومنعتها أمام الغزوات، ورأى في مفردات اللغة «روح الوطن وعبقريته». وإن تحدّث عن الشعر والشعراء أبرز دور الشعر في الحفاظ على القيم والأخلاق الفاضلة، ورأى في الشاعر «مصلح الطبائع وناشر الفضيلة وطاوي الرذيلة».

وإن مجدّد صبر الشعراء على الشدائد دعا أبناء قومه إلى أن يتعرّفوا رجولتهم في نار الآلام والمكاره.

وإذا تحدّث عن الأسلوب الأدبي دعا الأدباء إلى التجديد والابتكار، لأن الكتابة إنّما هي «أن يكون لك أسلوب خاص بك».

وشفيق جبري كان يؤمن بثبات الأخلاق، فالحضارة والمدنية عجزا عن تهذيب ما في أعماق الإنسان من نزعات طبيعية إلى الشر والعنف، فإذا اختلفنا عن أجدادنا فإنما نختلف عنهم اختلافاً يسيراً جداً، ولا تتغير عواطفنا وأذواقنا إلا إذا تغيرت الأعضاء التي تتوالد منها، وهذا لا يتم إلا في قرون».

وإذا كتب عن العلم أبدى حاجة أبناء دمشق إلى مكتبة عصرية تضم نفائس الكتب، ودعاهم إلى السخاء في سبيل العلم للحاق بركب الأمم المعاصرة، وإذا شاهد تماثيل تقام للعظماء والنوابغ في عواصم العالم تمنى أن يبادر قومه إلى تكريم عظمائهم وفضلائهم يقول:

«أيّ عين لا تدمع، وأي قلب لا يحزن إذا رمى أحدنا بطرفه في بلادنا ولم يجد أثراً لشاعر من شعرائنا، أو كاتب من كتابنا، أو قائد من قوادنا الذين أضأوا الظلمات ومهدوا الملك، ووطدوا السلطان».

وإذا تحدث عن الكتابة الصحفية عاب على «أولئك الذين يملأون الصحف بخواطرهم السمجة وهواجسهم الفظة البالية» وحثّ على الذوق ولطف البيان في الكتابة.

وإذا كتب عن تاريخ العرب دعا قومه إلى اللحاق بالأمم التي بلغت من العلم والحضارة.. وفي ذلك كله ما يثبت أنه كان داعية للإصلاح والنهضة، مطلعاً على أسباب تخلف مجتمعه، حريصاً على تقدمه داعياً الجيل إلى العمل ومحاربة الفراغ والبطالة، مرشداً الموظفين إلى خدمة الشعب.

على أن في بواكير جبري خواطر وتأملات تحدد رؤيته الخاصة للحياة، دون أن نلاحظ تعارضاً بينها وبين سلوكه الشخصي كإنسان يعيش بين ظهرائنا.

ففي مقال له عنوانه (لزوجة الحياة) يتحدث عن نسبية الأمور، فلا خير ولا شر، ولا حسن ولا قبيح في الحياة، إن هي إلا أسماء سميناها نحن وآباؤنا من قبل واصطلاح البشر على أن يكون هذا الأمر حسناً وذاك قبيحاً «فالعاقل منا من

ينظر إلى الحياة من وجهها الصحيح فيطرح الأوهام التي تقبح كل شيء في النظر ويعيش عيشة هادئة ساكنة».

ويستشهد بقول لأحد الكتاب تمني فيه لو ينسى كل ما تعلم ويعود إلى حضن الطبيعة ليعيش في نقائها وبساطتها.

وبالفعل فقد طبق «جبري» هذا المبدأ في مراحل لاحقة من حياته، فاعتزل الناس وعاش في أحضان الطبيعة ببلودان وكانت له فلسفة خاصة في حياته ونظرته إلى ما تواضع عليه الناس من مواصفات، دون أن يجد فيما قيد به نفسه غيلاً لأنه كان منسجماً مع ذاته، صادقاً مع خواطره وتأملاته، يفعل ما يقول، ويطبقه على حياته.

ولعل أهم ما دعا إليه جبري في خطته الإصلاحية الأخذ بمبادئ العدالة والمساواة بين فئات المجتمع.

«ولاعجب فإن الأمم لا تزداد تبسّطاً في منازع الحضارة إلا ذهبت آثار النفاضل في الاجتماع والسياسة، واستقرت فيها أصول التساوي والتعادل» بل لعلّ أبرز ما نادى به هو الوحدة الوطنية والتآلف الذي يوحد قلوب المواطنين من الفئات المختلفة «فأرشد وسيلة إلى التقريب بين ما تباعد من القلوب، وصرف العزائم إلى غاية وطنية عامة تجمع بين النصارى والمسلمين على السواء».

لم تكن وطنية جبري محض كلام يكتب، ففي مقالاته الأخيرة وكلمات التأين، نجده يخرج عن طوره ورسائته المعهودة وأسلوبه التوجيهي الهادئ وقد استفزته ممارسات رجال الانتداب الفرنسي وعملائهم، فيسلقهم بلسان يتفجر غضباً وألماً، وقد هاله أن يسفر هؤلاء الذين عاثوا في بلاده فساداً عن وجوه لاتعرف الحياء، ولا تقيم لحق الشعوب وزناً، ويكفي أن تقرأ كلماته في تأين الشيخ أحمد قضماني، أو كلمته التي ألقاها في دار السيد هاني الجلاد

في ٢ تشرين الثاني من عام ١٩٣٥ لتقف على مدى جرأته في مناضلة السلطة المنتدبة وأعوانها .

«إن السياسة الأجنبية في هذه البلاد لا تستطيع أن تضع أيديها إلا في أيدي هذه المخلوقات الواطئة، انظروا إلى هذه الرياسات القائمة في البلاد : رياسة عنيفة مفتتة وسخة، مائة الدماغ، مفلوجة الشعور، مشلولة الحس».

أيها السادة:

صمموا أن لا تكونوا عبيداً تصبحوا أحراراً... فإذا لم نسند هذا الانتداب بعد اليوم وجدناه شبه تمثال كبير نزعته منه قاعدته التي يعتمد عليها، فهو على الأرض، محطم تحطيماً.

وفي خطبته بمناسبة عيد شهداء السادس من أيار يقول:

«يا رجال الوطن ! إن هذه القبور لا تحتوي على لحم ولا على عظم ولا على دم، إنها تحتوي على شيء أبقي من اللحم والعظم والدم، إنها تحتوي على فكر خالد لا يموت وهو فكر التضحية، هذا فكر دمشق، فكر سورية كلها، هذا الفكر الخالد الذي لا يموت، قد يقتلون أصحابه، أو ينفونهم، أو يسجنونهم، ولكنه يبقى خالداً على وجه الدهر».

- ٣ -

في هذه البواكير التي نشرت منجّمة في عدد من الصحف والمجلات تذهلنا وحدة فكر جبري على الرغم من تباين هذه الصحف والمجلات في اتجاهاتها الفكرية والسياسية، كما يشدنا إليه بهذه الوحدة الفكرية .

وضع «جبري» نفسه فوق انقسامات الفكر والسياسة، وأثرها في تفريق وحدة الصف، وزرع الضعف في جسد المجتمع والوطن ليسمو إلى آفاق من الوطنية تتجاوز المصالح العارضة إلى غاية أسمى هي جمع كلمة الأمة، ومدّها بأسباب القوة والمنعة في ظرف هي أحوج ما تكون إليهما.

وواقع الحال أن هذه المقالات لا يصح أن يطلق عليها مصطلح البواكير، بالمعنى الشائع المتداول، لأن جبري طلع فيها وهو أكثر ما يكون استعداداً للكتابة، وامتلاكاً لأدواتها ومتطلباتها، من حيث غزارة الفكر ومثانة الأسلوب، والنضج الثقافي، فلا نلمح فيها ما نلمحه من تردٍ في أساليب المبتدئين، أو تعثر في ممارستهم المبكرة، بل على نقيض ذلك نشعر أنها تدخل في باب النتائج الرفيع من أدب كتاب المقالة في عصره.

وقد أقبل جبري على الكتابة هذه الصحف والمجلات وهو فوق الثلاثين من عمره، ولم يبادر إلى النشر المنظم إلا بعد أن استحكمت قواه في دنيا البيان والتمس له نهجاً في التعبير، وخطية في العرض ترقى بنتاجه إلى مصاف كتاب المقالة الكبار، فتسمية هذه المقالات بدايات أو البواكير ليس إلا تجوراً يشير إلى بدايات في العمل الكتابي سعى جبري فيما بعد إلى تطويرها بعد أن انتسب إلى المجمع العلمي ومارس التدريس، وانخرط في عالم البحث والتأليف، فتخفف من ضرورات الصنعة البديعية في كتابته، واقترب فيما كتبه من مقالات لاحقة من التزسُّل الذي يخلو من الصنعة والتماس الغريب من المفردات والتراكيب، وبدا نتاجه في فن المقالة أقرب إلى العلم والموضوعية ومنهجية البحث بعد أن كانت مقالاته قبل ذلك أشبه بالخواطر العابرة، فبدت دراساته المنشورة في مجلة «المجمع» بحثاً موسعة لكنها تستند في جوهرها إلى بذور فكره التي نثرها في بواكيره، وظلت شخصيته الأدبية والفكرية واحدة في جوهرها، واهتماماتها ونوازعها، تحكمها قوة عقله، وتصقلها تجارب الحياة المتراكمة، والمخزون الثقافي المتنامي، مثلما تسيّرنا الذات الفاعلة المتفاعلة مع الشعور وحرارة الوجدان، وإن بدا جلياً أنه أقام في أدبه بعد ذلك التطور حدوداً واضحة بين شعره ونثره، فاختص شعره بما تقتضيه الصنعة من جمال لغوي وفني وتعبير عن المشاعر، واختص نثره بالفكر وما يقوم عليه من الحجج والبراهين، والأسلوب العلمي والمنهجي، والأدلة العقلية.

وبهذه النقلة بدا شفيق جبري مجدداً في أساليب تعبيره الثرية، مسيراً روح عصره في حين أنه ظلّ محافظاً سلفياً في شعره، ودوافع هذا التباين كثيرة، فقد تميز النثر عن الشعر بحكم ارتباطه بالواقع، وانفصلت لغة الصحافة عن لغة الأدب، وأصبحت ألصق بالحياة والتعبير عنها، كلما فرض التخصص والتطور العلمي تطوراً في أساليب التعبير والكتابة، واقتضى التعليم الذي مارسه جبري في المدرسة العليا ثم الجامعة، اقتضى منه أن يساير الحاجات التربوية إلى بيان جديد سهل وواضح، بعيد عن الصنعة الأدبية، حيث فرض عليه أن يقدم في زمن يسير لطلابه محاضرات متتالية لا يسمح ضغط الوقت وظروف الدراسة أن يتفرغ لمثل هذه الصنعة الأدبية التي بدت في بداياته، فتخفف من الترادف والتوازن في دراساته، وإن ظل شديد الإلحاح على الفكرة التي تناوّلها في عدة جمل، حرصاً على إيصالها لطلابه وقرائه، مثلما تخفف من استخدام الغريب النادر من مفردات اللغة وتراكيبها، وإن ظل في كتاباته يدعو إلى إحياء العربية وبعثها وإثبات أن لغة العامة فيها من بقايا الفصح ما يقربها من اللغة الفصيحة، ومن المجاز ما يقربها من لغة الشعر.

- ٤ -

كان شفيق جبري يتمتع بصفة الاعتدال، وهي سمة تنبع من توازن شخصيته، وتظهر تلك السمة جلية في بداياته الأدبية، فهو يكره التطرف، ويرفض التصلب، ويؤمن بمنطق الحياة التي يجري فيها التطور رخيماً هادئاً عبر الزمن، وفي بداياته ينعى على الجامدين جهودهم، والمندفعين إلى كل جديد تهورهم، وهو يؤمن بأن الحياة تتطور شئنا أم أبينا لأن التجديد من نوااميس الحياة، لكنه يكره الطفرة التي تتعجل، أو تحالف نوااميس الطبيعة، وهو في ذلك كله واقعي التفكير، يتعلم من الطبيعة ويحترمها، وييدي عجز الإنسان عن معارضة منطقتها.

وتفتزن واقعيته بالصدق، فقد خصَّ كثيراً من بواكيره لمحاربة النفاق الاجتماعي، ومحاربة الظواهر التي لا تنسجم مع البواطن في حياة الناس، وكان نقده ملفعاً بالتهكم والمرارة، مقترناً بنزعة إنسانية سامية تدافع عن المظلومين والفقراء والعمامة، وتفضح الفئات المستغلة فلنسمع إليه كيف يُعرِّي هذه الفئة الخطيرة:

«ينافق الإنسان في دينه وعقيدته فيليس الصوف وقد انحنى ظهره وبدت عظامه لكثرة صلاته وصومه، وما هو بالزاهد، ولا بالناسك، وإنما حبس نفسه عن جرعة ماء، أو مزعة لحم لأمر يطلبه في دنياه... ولكن الداهية الدهواء أن ينافق المرء في حب وطنه فيليس لبوس الذائد عن ربه، المانع عن جاره فإذا جدَّ الجد أورد وطنه موارد لا حدود لها».

وهو يختار من مطالعاته نماذج من سلوك العظماء في الإيثار والبذل والنضحية ليقتدي بها مواطنوه، وهو يندد بالاستغلال... استغلال الجهد الإنساني فيقول:

«ويستبد أصحاب الصناعات والتجارات بما يجتمع لهم من المكاسب فيستعملون العمالة في منافعهم من غير أن يجازوهم بما يستحقون أو يعطفوا عليهم بحسب ما يستوجبون...».

غير أنه كان معتدلاً في دعوته إلى مناصرة الفئات المستغلة، يحثها على أن تتعرف الوسائل التي تتوصل بها إلى مراد أنفسها والدفاع عن حقوقها عن طريق التشريع لا العنف والتفهم البناء بين مختلف الفئات، غير أنه يحذر الأغنياء من عواقب احتقارهم للفئات الكادحة، وينبئهم بأسوأ النتائج.

فالاعتدال والواقعية والحرص على سلامة المجتمع من الانقسام والاهتزاز كانت جوهر دعوته في إصلاح مجتمعه وتحسين أوضاعه، يقابل ذلك نظريته إلى التجديد في الأدب والفن والحياة... فهو يرى أن للتجديد نوااميس لا يمكن مخالفتها، وهي نوااميس تفعل في ذوق الناس وتطور الأذواق ولن يفرض التجديد

بدعوة مغامرين، وإنما يفرضه ذلك التطور الخفي للحياة الذي يعدّل من قيم الناس ومنازعتهم، لأن ناموس الطبيعة أقوى من أن تبدّله دعوات الفكر، فللتجديد مستلزماته الاجتماعية والنفسية التي إن لم تتوافر في مجتمع ما، ومرحلة معينة، بدت تطلعاتنا إلى التغيير ضرباً من العبث.

وبهذه الواقعة المتزنة بدا «جبري» سابقاً لعصره، تثبت الأيام سلامة رؤيته وبعُد نظره.

ومن هذا المنطلق تراه يسفّه أولئك الذين يرون أن تحريم المرأة تعلم القراءة والكتابة بحجة أنهما سبيل إلى معرفة أمور لا يصحّ أن تعرفها، فيقول: «كيف يجد المرء سبيلاً إلى معرفة ما تنطوي عليه الحياة من الأسرار إذا هو لم يجرب خبيث الأمور وطبيها ويعلم قبيحها وحسنها. ثم يضيف:

«إني لا أحفظ كلاماً أتمّ به هذا المقال من كلام لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فقد قيل له إن فلاناً لا يعرف الشر، فقال: ذلك أحرى أن يقع فيه». وهو يرى أن روح طالبات هذ العصر المصقولة تذهب تواءً إلى المطالعات اللاتقة... أعنى إلى المطالعات التي تناسب الذهن والحسّ.

وهو يعوّل على الرادع الداخلي الذي يحكم سلوك الناشئة أو ما نسميه شخصيتها المنبئة التي تعصمها من السقوط.

في بواكير شفيق جبري زاد وفير، وحكمة نحن أحوج ما يكون إليها في عصرنا العاصف، وإن طباعتها وإخراجها للناس خدمة للأدب والمجتمع وإنصاف هذه العبقرية الفذة التي لم نصفها، فلنبادر إلى إحياء ما أعطت قبل أن يعفي عليه النسيان.

دمشق في ١٩٩٨/٩/٧